الصحيح من الفراسة

امارات الخوف

محبة الذات خلق راسخ في النفس لكن ليس لها علامة ظاهرة تدلُّ عليها فلا يستطيع المصور مهما كان ماهرًا ان يصوّر انسانًا صورة تدلُّ على انهُ محب لنفسهِ . الاَّ ان محبَّ نفسهِ اذا رأى ما يسرُّها ابتهج او اظهر العُجب والخيلاء واذا رأى ما يخشى منهُ عليها اظهر الخوف والاحجام او الجرأة والإقدام . والخوف والاحجام والجرأة والإقدام امارات تدلُّ عليها كما تقدَّم. اما محبة الذات المطويَّة تحتها فلا امارات لها لانها من القوى المتجهة الى داخل الانسان فلا علامة لها في ظاهرهِ ولكنها حالما تهيج تهيج الرَّيْب في النفس وهو الدرجة الاولى من الخوف. فاذا رأى الانسان او الحيوان ما يخشى منهُ عليهِ ارتاب فيهِ اولاً ثم خاف واحجم او تجاسر واقدم . وامارات الرَّيْب ضعيفة تظهر بارتفاع الحاجبين والشفة العليا وتضييق الفم وتغضُّن الجبين. واذا اراد المرتاب ان يعرب لغيرهِ عن ريبهِ من غير كلام بالغ في هذه الاشارات وهز كتفيهِ او يديهِ ووضع سبَّابتهُ على خدهِ او على جانب انفهِ او تحت جفنهِ الاسفل وجذب عينهُ بها قليلاً ويبدو منهُ حينئذٍ صوت يختلف باختلاف الشعوب ويُدرَك معناهُ عندهم بسهولة. هذه الاشارات ما سببهُ واضح كرفع الحاجبين فانهُ ناتج عن المبالغة في فتح العينين كأن الانسان يحاول ان يمعن نظرهُ في ما هو مرتاب منهُ لكي يتبيَّنهُ جيدًا ومنها ما سببهُ غير واضح كوضع السبابة على الخد

ويصير الريبُ ملكة في النفس فتبدو ملامحهُ في الوجه وتكون على اشدها في المجنون المصاب بجنون الاضطهاد اي الذي قام في نفسهِ ان الناس يضطهدونهُ ويحاولون الايقاع بهِ فتراهُ ينظر الى ما حولهُ نظر الخائف المستريب حاجباهُ مرتفعان او احدهما مرتفع والآخر منخفض وعيناهُ مضطربتان ينظر يمنةً ويسرةً وهو زامٌّ شفتيهِ ينفض رأسهُ حينًا بعد حين ثم يقف كأنهُ يتنصَّت لاصوات لا يسمعها غيرهُ. وهذا مرض كما لا يخفى ولكن في الاصحَّاء علامات اخرى تدلُّ على الريب كفقد الطلاقة من الوجه والميل الى الخصام والى الخجل

وقد افاض اهل الفراسة في وصف ما حسبوهُ ادلَّةً على الخوف والجبن كنعومة الشعر مستدلين على ذلك بنعومة صوف الغنم وشعر المعزى وكنعومة الجلد وانحناء القامة ونحافة عضلات الساقين واصفرار الوجه وضعف العينين واسوداد الحدقتين الى غير ذلك من المزاعم والخرافات التي يغني ذكرها عن اثبات فسادها

امارات التعقّل والتفكير

اقاض اهل الفراسة في وصفهم دلائل العقل والذكاء . وفي الارجوزة العربية المشهورة في القيافة كلام كثير من هذا القبيل فما جاء فيها عن الجبين

كل جبين بارز معتدل فهو دليل العقل عند الأوّلِ

وعن الانف والاستوا ودقّة في الارنبة ثم ارتفاع الانف نعم الموهبة

دلائل للعقل ثم النفعِ وجودة الفهم وحسن الطبعِ

وعن الاذن وكل مستديرة رقيقة وهي خلف الراس كالمصوقة

دلالة على الذكا والعقلِ وخفّة النفس وحسن النقلِ

وعن الشفة والشفة الرقيقة الحمراء مع صغر الفم هي الحسناء

وهي دلالةٌ لحسن العقلِ وحسن اخلاق وحسن فعلِ

وعن اللحية وكل كوسج فذو كياسه وذو فطانة وذو فراسه

وعن الشعر والشعر فالاجود منهُ الاوسطُ في قلّة وكثرة لا المفرطُ

وفي خشونة وسفي جعودهِ نبذه صفاتهُ المحمودهِ

هذا دليل العقل والذكاء وجودة التدبير والآراء

وفي الوجه والشحم في الوجوه باعتدال علامة للعقل في الرجالِ

وفي الصدر واجمعوا ان وسيع الصدر كثير روح وطويل عمرِ

وانهُ ايضاً دليل قطعي لجودة الفهم وحسن الطبعِ

وفي البطن والبطن منهُ ان خلا من شعرِ دليل فهم وصواب فكرِ

وفي الاصابع قالوا وطولٌ في اصابع اليدِ ينبيءُ عن حجّة خلق الكيدِ

وجودة في العقل ثم الطبعِ وشرطها اللين وحسن الوضعِ

ولو نقلنا ما ذكرهُ هذا الراجز من دلائل الحمق والبله في الاعضاء المذكورة لقامت علينا قيامة القرّاء وحق لهم ذلك لانهُ يصدق على اكثر الناس . لكنّ ما ذكرهُ من الوجهين فاسد على حدّ سوى لتناق حجتهُ في بعض الناس ولا لتناق في غيرهم لانهُ ليس من ارتباط سببي بينهُ وبين العقل فقد تجتمع جودة العقل مع دقة الشفة وقد تجتمع مع غلظها كما تجتمع مع استدارة الاذن ومع طولها ومع طول القامة ومع قصرها

ولم يبحث احد من اهل الفراسة بحثاً استقرائياً واسعاً حتى يحقّ لهم ان يبنوا مثل الاحكام المتقدمة وانما استدلوا على صحة احكامهم بملاحظات قليلة جدًّا لا يمكن ان يبنى عليها حكم

او باستدلالات تضحك الاطفال كالاستدلال بنعومة الشعر على الجبن من نعومة صوف الغنم وبطول الاذن على الجهل من مشابهتها لاذن البهائم . قال الراجز ولم يجد

والاذن الكبيرة المقدار دلالة للطول في الاعمار
لكنها للشبه بالبهائم للجهل جاءت اصدق العلائم

ومما يحسن سردهُ في هذا المقام ان النابغين من علماء العرب ادركوا فساد ذلك قال صاحب كشف الظنون في كلامهِ على قيافة البشر انها تدرك بالحدس والتخمين لا بالاستدلال واليقين. وقد انتبه بعضهم الى الفراسة الصحيحة المدلول عليها باعمال الانسان واحوالهِ وهيئاتهِ. فقد جاء في كتاب لطائف المنن والاخلاق للسيد عبد الوهاب الشعراني قولهُ " والعلماء في ذلك كتب كثيرة لكن غالب فراستهم من حيث رؤية اعضاء الجسد الظاهرة . وهذه الفراسة انما هي من حيث الاعمال والاحوال والهيآت " الى ان قال " كل من رأيتموهُ كثير الصمت والفكر والطمأنينة في الحركة وحفظ العين من فضول النظر الى اثبات البصيرة في وجوه الناس لغير غرض فهو دليل على قوة عقلهِ وفهمهِ وغير ذلك يكون من صفات المجاذيب ارباب الاحوال والمجانين. ومن رأيتموهُ يقرمط اتئهُ مع عبوسة وجههِ فهو دليل على قيام نفسهِ وعدم انقيادها ونفعها بكلامكم" الخ ويحتمل ان يكون كثير مما ذكرهُ خطأ لكنهُ كان على الصواب في الاستدلال على احوال النفس بالاشارات والحركات البادية في الوجه

هذا ولنعُد الى ما يقولهُ اهل الفراسة الصحيحة قالوا :

من حين تأخذ دقائق الدماغ تفعل فعلها الذي نسميهِ فكرًا لا تتوقف عن هذا الفعل توقفًا تامًّا الاَّ بانصرام حبل الحياة والمرجح انها تفعل في النوم كما تفعل في اليقظة ولو نسيناحينما نستيقظ ما كنَّا نفكر بهِ ونحن نيام . وهذا التفكير المستمر تبدو آثارهُ في الوجه ولو كانت طفيفةً جدًّا فمما يُنتبه لها وبها يمتاز وجه الحي عن وجه الميت . واكثرها في ابراق العينين وحركات عضلات الوجه فاذا لم يبدُ شيء من هذه الملامح في الوجه قيل ان صاحبهُ بليد خامل . واذا اريد التدقيق ظهر ان اكثر معاني الوجه العقلية محصور في بقعة ضيقة بين الحاجبين وفي وسط الجبين حتى سمَّى دارون العضلات التي تقطب الحاجبين عضلات التفكير . ومن رأيهِ ان تقطيب الحاجبين يحصل اولاً من تعب الفكر وقد يكون فيهِ رُجعة الى ما كان اسلاف الانسان يأتونهُ وقت التحديق الى الاشياء مخافة ان يكون فيها عدو مقبل عليهم فصاروا يقطبون حواجبهم كلما امعنوا نظرهم

وخالفهُ الاستاذ منتغزا في ذلك وقال ان مجرد الاهتمام بالامر يدعونا الى الميل اليهِ بحاسَّة

من الحواس الظاهرة او الباطنة ولا سيما اذا كان ممَّا يرى او يسمع فاذا كان ممَّا يرى وهمنا امرهُ ترانا نميل اليهِ بكليتنا فنخمي ونحدق فيهِ كأنَّ عضلات العنق والجذع كلها تحاول تقريب العين منهُ لكي لا يفوتها نظرهُ واذا كان ممَّا يسمع ملنا اليهِ ايضاً بكليتنا واذا كنَّا نسمع باذن اكثر ممَّا نسمع بالاخرى املنا اليهِ الاذن الشديدة السمع ووضعنا الكف وراءها لكي نجمع تموُّجات الهواء. ونستطيع ان نهيج حاسة الذوق والشم واللمس لكن لا يبدو منها من الامارات الدالَّة على تهيجها كما يبدو اذا تهيج النظر والسمع . واذا كان المهيج للحواس داخليًّا في بدن الانسان او في مراكز شعورهِ العقلي انتبه لهُ كما ينتبه الى المهيجات الخارجيَّة فترى المصاب بالسوداء المعتقد ان في قلبهِ نبضانًا شديدًا او في امعائهِ حركات غير عادية يصغي الى نبضان قلبهِ او حركات امعائهِ اصغاء الخائف الوجل كأنهُ يصغي الى وقع اقدام عدو قادم عليهِ او اصغاء الفيلسوف المفكر في اعوص المسائل الحكميَّة

واذا اشتدَّ تفكير الانسان انصرفت قوتهُ كلها الى نفسهِ اي الى باطن دماغهِ فشخصَ ولم يعد يبدي حركة وظهر كأنهُ غاب عن الوجود . واذا زاد التفكير شدةً زاد انصراف القوة عن عضلات الوجه حتى لم تعُد تنبض الفكين فينفتح الفم ويتدلَّى الفك الاسفل وتظهر على الوجه امارات البلادة والبله . ولكن اذا انحلَّ رباط التفكير ولو بكلمة يقولها الانسان عادت الحركة الى الوجه والى سائر الاعضاء التي نشير بها ونحن نتكلم

ولابدَّ من الاشارات وقت الكلام واذا منعت الخطيب عن الاشارات وهو يخطب يضيق نفسهُ حتى يكاد يختنق وبعض الناس لا يستطيعون الكلام ما لم يحركوا ايديهم وارجلهم معًا . وهذه الحركات غير الحركات التي يراد بها تنبيه الاعصاب كفرك الجبين وحك الراس ونتف العثنون واللعب باللحية . والظاهر ان ادمغة الناس مختلفة من هذا القبيل فالبعض ينبِّه دماغهم بفرك الجبين والبعض بحك الراس والبعض بنتف العثنون كما كان يفعل الحريري صاحب المقامات فقال فيهِ الشاعر

شيخ لنا من ربيعة الفرسِ ينتفُ عثنونهُ من الهوسِ

والعثنون شعر الذقن كما في لحية الكويج . والبعض بالمشي والبعض بالركوب والبعض باللعب بالسبحة والظاهر ان للعادة الفعل الاكبر في ذلك

ثم ان اوضاع الانسان وحركات رأسهِ ووجههِ تختلف باختلاف الشغل العقلي الذي يشغلهُ فاذا كان يفكر في امر ظهرت على وجههِ علامات الذهول المشار اليها آنفاً واذا كان يريد ان يتذكر شيئًا غاب عنهُ ذكرهُ شخص ببصرهِ الى الاعلى او الى الاسفل واغمض عينيهِ وفرك

جبينهُ براحة يدهِ او لثمهُ لثمًا وهذه الحركات تعين الذاكرة بتهييج دقائق الدماغ

واذا شرع يتكلم اخذ جسمهُ كلهُ يساعدهُ على الكلام ويعبّر عمَّا في نفسهِ باشارات ينبهها الناظر اليهِ وقد يراها ابلغ من كلامهِ . وما من خطيب الاَّ ولهُ اشارات يستعين بها على ابلاغ معانيهِ الى اذهان السامعين واذا لم تكن الاشارات منطبقة على المعاني او اذا كانت منافضة لها كما اذا حفظ الخطيب خطبتهُ غيبًا من غير ان يفقه معناها فجاءت اشاراتهُ في غير محلها اشمأز منهُ السامعون او اغربوا في الضحك

لم نغرب قط في الضحك قدر ما اغربنا مرةً اذ سمعنا احد الظرفاء يتقلد تلامذة المدارس وقد استظهروا قصيدة تنيسن المشهورة التي نظمها في وصف فرسان الانكليز وقت هجمتهم المشهورة في حرب القرم فانهُ كان ينطق بها كتلميذ حفظها غيبًا وحفظ الاشارات التي يشار بها معها . وصار يتلو البيت وينسى ان يبدي الاشارة معهُ فيشير بها بعدهُ وقد يخطئ فيشير بعكس المراد ثم يصلح خطأهُ فيقول مثلاً امام ويشير بيديهِ الى الوراء ثم يظهر عليهِ كانهُ انتبه لخطإهِ فيشير الى الامام وقد اغرب كل الذين سمعوهُ في الضحك كما اغربنا

والفصحاء الطلقو اللسان تتبع اشاراتهم كلماتهم كأنها جزء منها واما اهل الحصر والعي فتتقدَّم اشاراتهم على كلماتهم كأنهم يستخرجون بها الكلام من افواههم استخراجًا

واهل القرائح الوقَّادة ترى نور القريحة يتلألا في عيونهم يبدو فيهم حينما تهيج قريحتهم ولو حاولوا سترهُ وتظهر آثارهُ في ما ينظمونهُ ويصورنهُ سواء كان بالكلام او بالالوان فيفعل بنفوس القارئين والناظرين . تقرأ مرثاةً مفجعة نظمها الراثي ودموعهُ تمحو طروسهُ فلا تستطيع الاَّ ان تشاركهُ في البكاء والتوجُّع . وترى صورة جميلة فتتعشقها كما تعشقها المصوِّر

لكن هذه الامارات لا تبدو على وجه النابغة دائمًا بل حينما تهيج قريحتهُ وفي ما سوى ذلك يكون كسائر الناس او تظهر عليهِ سمات البلادة والبله كأنَّ مصباح القريحة شديد الانقاد فيحرَق زيتهُ سريعًا وينطفئ الى ان يوضع فيهِ زيت جديد . وليس هذا القول من قبيل التمثيل بل هو حقيقة لان القوة الآتية من الدم الى الدماغ تنفد سريعًا اذا أُفرط في استعمالها فتكل الاعصاب وتطلب الراحة الى ان يتوفَّر لها الغذاء

ويقال بنوع عام ان للنوابغ ولكل المشتغلين اشغالاً عقلية امارات واضحة ولكنها لا تبدو في وجوههم الاَّ وهم ينكرون وقلما يرسخ منها في الوجه الاَّ غضون الجبين وهي غير خاصَّة بهم ولا دائمة فيهم